كلام ابن الشرق في الغرب

﴿ وهو كلام من سمع ورأى ﴾

سلسلة مقالات « لصاحب الجامعة » يدرس فيها
شؤون المدنية الاميركية وآثارها

قلنا في خاتمة الفصل السابق في الجزء السابق ,, سنُظهر في مقالة تالية كيف رقّت التجارة والصناعة الفنون في اميركا وكيف رقت الفنون التجارة والصناعة فيها ,, وليس غرضنا الاقتصار على هذا البحث بعينه وانما هو عندنا ذريعة الى البحث في مسألة هامة في المدنية الاميركية كانت ولا تزال مثاراً للخلاف والنزاع بين كتّاب اوروبا واميركا الاجتماعيين . وهي ما تقدم بسطه في الفصل السابق بهذه العبارات :

(اذا كان (أي الناظر في المدنية الاميركية) ممن نشأوا على المبادىء الايديالستية ويفضلون آثار (العقل والنفس) على آثار المادة قال ان الاميركيين قوم حديثو النعمة كبيرو الدعوى مع انهم لا يزالون اطفالاً في المدنية الحقيقية (أي في الآداب الاجتماعية والسياسية والعلوم والفنون) واذا كان ممن نشأوا على المبادئ الاوتيليتر (النفعية) ويفضلون آثار المادة على (آثار العقل والنفس) قال ان المدنية الاميركية تقدّمت المدنية الاوروبية بمراحل)

فكلامنا هنا في نفس طبيعة المدنية الاميركية وأثر التجارة والصناعة في اخلاق الامة وآدابها وفنونها واثر هذه الآداب والفنون في تجارتها وصناعتها

﴿ الرفيقان المتلازمان ﴾ الاصلاح في الارض ضربان . ادبي ومادي . فبعض علماء الاجتماع يقولون انه اذا لم يتقدم الاصلاح الادبي الاصلاح المادي

فكل ما تبنيه الامة صائر الى الانهدام . يعنون بذلك ان الامة اذا انصرفت الى الشؤون المادية من تجارة وصناعة وزراعة وكبرت وأثرت قبل ان تحدث الاصلاح الادبي في اخلاقها وتدخله الى اعماق نفوسها فانها تشبه رجلاً جسمه ضخم ممتلئ شحماً ولحماً وعقله صغير أفرغ من جراب ام موسى . وهم يستشهدون على ذلك بالافراد الذين يثرون وتكون هذه حالتهم . و يقولون ان الامة التي (تسمن جيوبها) و(تهزل عقولها) على هذا المثال تنطلق فيها الشهوات المختلفة في ميدان البطر فيسود مفضولها على فاضلها و يستعلي صغيرها على كبيرها فلا تنشأ فيها مبادئ الارتقاء الحقيقي والآداب الحقيقية ولا تبلغ فيها سلامة الذوق في الفنون والتحقيق العلمي والصبر عليه صبراً يرقي العلم ويسهّل الحياة ويجمّلها مبلغاً يذكر . بل تكون هذه الامة امة مقلّدة في كل هذه . وكل ما عندها (اتباع لا ابتداع)

و بعض علماء الاجتماع يقولون ,, لا بل ان الاصلاح الادبي لازم عن الاصلاح المادي '' وفي جملتهم العلامة تاين . فعندهم ان الامة اذا ارتقت ماديًا اقترن ارتقاؤها المادي هذا بارتقائها الادبي حتماً . لان الثروة قوة واستقلال . ومتى قوي الانسان واستقلّ اصبحت نفسه تعاف الرذائل التي تنشأ عن الفقر والذل والضعف كالكذب والاحتيال للكسب ودفع الاذى عن نفسه وكالجرأة وحرية الفكر لعدم خوفه في فكره لومة لائم وكمعيشته حراً عاملاً نشيطاً لانه تعود العمل والنشاط اللذين ابلغاه ما بلغ . ناهيك عن ان انانية الانسان بعد بلوغها الثروة المادية تطمح الى الثروة الادبية بسائق غريزتها فيميل الانسان الى الظهور وطيب الاحدوثة بين الناس واستمالتهم اليه ليكون له عندهم مكان سنيّ ووساد مثنيّ . وهذا لا يكتسب في الهيئة الاجتماعية اكتساباً حقيقياً الا بصالح الاعمال وحميد الاخلاق ونفع الناس والظهور بمظهر الفضلاء

على ان الحكم بين هذين المبدأين كالحكم في المسألة القديمة التي تتداولها جميع المدارس وتجعلها مناظرة بين الطلبة وهي ,, أيّ انفع للهيئة الاجتماعية العلم أم المال ؟ ،، وقد سُئل يوماً احد الطلبة هذا السؤال فالقى على سائله هذا السؤال المضحك ,, وانت افدني · أيّ انفع لك رأسك ام قدماك ،،

والرأي الصحيح ان الاصلاح المادي يجب ان يكون في كل امة مقترناً بالاصلاح الادبي · ولا ضرر في ان يسبق احدهما الآخر مرحلةً اوعدة مراحل اذا كان سيرهما منتظماً · ولكن ليست هذه بعقدة المسألة · وانما العقدة تقدّم احدهما على الآخر في الامة تقدماً بعيداً دون تدبير ولا انتظام · ففي هذه الحالة نرى ان النتيجة تكون تابعةً (لطبيعة) تلك الامة · وهنا حلّ المشكلة على ما نرى

قس ذلك على الافراد مثلاً : خذ رجلين اثريا بعد فقر تجد ان احدهما ادّبه فقره وهذبه غناه فارتقى · واحدهما لم يؤدبه فقره وافسده غناه فانحط · وخذ رجلين تأدبا وتهذبا معاً تجد ان احدهما يؤدي به ادبه وتهذبه الى العلم وانتفاع الناس بعقله وفضله واحدهما يؤدي به ادبه وتهذبه الى الامراض الادبية والافكار الفوضوية · فالحكم على آثار الاصلاح المادي والاصلاح الادبي في نفوس الامم والافراد متوقف على طبيعتهم والصفات التي صيغ منها وجدانهم والمؤثرات الخارجية التي تؤثر فيهم — قبل كل شيء

﴿ مثال الولايات المتحدة ﴾ واقرب دليل على ذلك الولايات المتحدة

ان اشدّ اعتراض يُعترض به على الولايات المتحدة انصرافها الى الحياة المادية انصرافاً كلياً وكبر دعوى ابنائها في قولهم انهم سبقوا جميع امم الارض حضارة ومدنيّة · وكثيرون من مفكري الاوروبيين يعدّون (هذا الانصراف الكلي الى كسب المال والادعاء الفارغ) اكبر نقائص الاميركيين ويعيرونهم به ·

فهم يقولون مثلاً (ان الاميركيين تجار وصناع وزراع ليس الا . اما باقي آثار القوى البشرية التي هي مظاهر المدنية الحقيقية كالاثار العقلية والنفسية من علوم وفنون وسلامة ذوق ورقة اخلاق — فجميعها ضعيفة عندهم ضعفاً يضعهم في منزلة الامم الثانوية) وهم يوجهون اليهم اللوم والتقريع على الاخص بشأن الفنون لانهم يعدّونها (مقياس الارتقاء) . فيقولون انه ليس في اميركا أثر للفنون الحقيقية الصحيحة التي يجوز لغيرهم من الامم ان يقتبسها منهم ويأخذها عنهم غير الرقص الاميركي الذي سيتغلب في المستقبل على الرقص الاوروبي لانه اجمل منه وادعى الى الرياضة وصوت الزنوج رجالاً ونساءً الذين اذا احسنوا فن الغناء امكنهم ان يفوقوا على جميع مغني العالم لان لصوتهم قوة خاصة وصفاءً خاصاً . فكأنهم ينظرون الى الولايات المتحدة نظرهم الى امة برزت الى حلبة الميدان لمبارزة الاقران والتفاضل عليهم وكان الاولى بهم ان ينظروا اليها نظرهم الى امة آخذة في التكون والحضارة والجري في حلبة المدنية اذ لم ينقضِ بعدُ على حياتها الوطنية اكثر من ١٤٥ سنة

فاذا نظرنا الى الامة الاميركية هذا النظر من هذا الوجه تغيّرت المسألة واصبحت هكذا : هل الطريق التي تسلكها الآن الولايات المتحدة طريق تؤدي الى ارتقائها ارتقاءً حقيقياً في العلوم والفنون وسائر آثار العقل والنفس ارتقاءها في الآثار المادية ذلك الارتقاء الهائل . ام تلك الطريق مسدودة في وجهها فتستمر على كسب المال بغزارة وتبذيره بغزارة دون ان ترتفع نفسها في الافاق العليا التي تعيش فيها الامم العليا

والبحث في هذه المسألة في المقالة التالية